من أبحاث مؤتمر القطن :

تاريخ القطن فى مصر

للدكتور محمد مأمون عبد السلام ، مدير قسم أمراض النباتات

(ا) تاريخه فى العصور المختلفة حتى عهد محمد على

أول ما زرع المصريون من نبات الألياف الكتان ، فاتخذوا منه ثيابهم ولفائف موتاهم . ولم يكن للقطن ذكر فى أساطيرهم القديمة ، لذلك يميل العلماء إلى الاعتقاد بأن عهد مصر الفرعونية بالقطن غير بعيد . وقد عثر العلامة روزللينى فى إحدى مقابر طيبة على بذور قطن قال عنه العلامة برلاتورى إنه قطن شجرى « جوسيبيو أربوريوم » وموطنه أفريقيا . وتوجد بالمتحف المصرى بمدينة فلورنسا بإيطاليا مجموعة قيمة من النباتات المصرية التى وجدت فى مقابر المصريين ومن بينها قصوص القطن الشجرى ، ولكن عهدها لم يحدد .

وكل مالدينا من الأدلة على وجود القطن فى مصر الفرعونية هو قول هيرودوط إن أماسيس فرعون مصر أهدى اللاسيدامونيين قماطا من القطن بديع الصنع ، ومانقش على حجر رشيد المشهور من الإشارة إلى القطن ، ثم ماقاله بلينيوس الرومانى من أنه تنمو فى صعيد مصر شجرة اسمها جوسيبيون أو زيلون « هى القطن » يصنع المصريون منها قماشا اسمه زيلينا لامثيل له فى بياضه ونعومته وملاسته وجماله . وقال إن كهنة المصريين يصنعون منه ثيابهم . ويمكننا أن نستنتج من وصفه لهذه الشجرة أنها بلا شك القطن الشجرى المذكور آنفا .

وكان لمصر فى عهد البطالمة والرومان شهرة كبيرة فى صناعة القطن وتجارته ، فكانت تستوردها منها روما .

وقد ازدهرت زراعة القطن بمصر فى العصر الإسلامى ، وبلغت صناعته فيها درجة عظيمة من الإتقان والشهرة ، وقد تكلم عنها بإسهاب الرحالة الأندلسى ابن الأفضل حوالى سنة ١٠٩٧ ميلادية ، وكان ملوك مصر المسلمون يجبونه خراجا ، فعين الملك الصالح نجم الدين أيوب أحد أتباعه أبا عثمان النابلسى الصفدى على الفيوم ، لينظر فى شئونها ويدير جباية خراجها ففعل ، وكتب فى ذلك سفرا جليلا فصل فيه خراج هذا الصقع سنة ١٢٤٣ ميلادية فبلغ ما حصل كما يلى :

٧٢٤٠٣ أرادب من القمح ، و ٦٣٣٦٢ من الشعير والفول ، و ٣٣٥ من السمسم ، و٧٣٢ من الأرز غير المقشور ، و٧ من السكون ، و ١٩ من الكراوية و٩٣ من بذر السلجم ، و ٣٠٢ من الجلبان ، و٢٣ قنطارا من الثوم ، ومثلها من العسل النحل و ٤٤ من القطن ، وغير ذلك أشياء كثيرة .

وشرح المقريزى زراعة القطن — وكان من سكان القاهرة ومات بها سنة ١٤٤١ ميلادية — فقال إنه يزرع فى شهر برموده ، وأن زريعة الفدان نصف كيلة ، وأنه يكمل فى شهر توت ، وأن غلة الفدان أقصاها ثمانية قناطير بالجروى ، وأن بذورة تطعم للخراف لتسمينها .

وتكلم رضى الدين الغزى المتوفى سنة ١٤٧٧ ميلادية عن القطن فى كتابه « جامع فرائد الملاحة فى جوامع فوائد الفلاحة » فقال : إنه يزرع بالحجاز وعسقلان ومصر سقيا وبعلا ، وأنه يبذر من أول فبراير إلى منتصف مارس للبعل ، وفى أبريل للسقى وأنهم يزرعون حبتين أو ثلاثا فى نقرة عمقها نصف أصبع ثم يغطونها بتراب يسير (وهذه الطريقة تشبه شبها تاما طريقة الزراعة بالمضرب التى أثبت العلم الحديث صلاحيتها) . ثم قال إنه لا يروى حتى يبلغ طوله نحو شبر ، فاذا بلغ ذلك تنكش الأرض وتروى كل خمسة عشر يوما . وقال إن من عاداتهم إذا تزايد تفريع القطن وكثرت أوراقه أن تضرب أطراف فروعه بالعصى لتتكسر (وهذه عملية التطويش الحالية) وبذلك يجود طرحه ويكثر .

ثم ذكر انهم يمنعون عنه الماء فى شهر أغسطس (وهو الفطام المعروف عند فلاحينا الآن) إذ يكون نموه قد تكامل . وقال ينبغى أن يلتقط القطن أى يجمع فى باكورة الصباح فى شهر سبتمبر ، وألا يعرض ما يجمع منه للشمس ، والعادة أنهم يفصلون الشعر من البذر بأصابع اليد (أى يحلجونه) ثم ينشرون القطن المحلوج فى الشمس ليجف . فاذا انتهى الجمع يقلم القطن وتزبل أرضه أى تسمد ثم تروى فتخرج السوق فروعا جديدة فى كل عام .

وقال إن القطن يضره العطش كثيرا ، ولتفادى الضرر يرش الماء على أوراقه وسوقه اذا عطش . ثم تكلم عن الفوائد الطبية للقطن فقال : إن عصير أوراقه ينفع فى إسهال الأطفال ، وأن بذوره ملينة منفثة للصدر تنفع من السكلة .

وتكلم عن القطن داود الضرير الأنطاكى فى تذكرته — وكان يقطن القـ

حوالى سنة ١٥٩٩ ميلادية — فقال : إن القطن بمصر حولى يزرع فى برموده وينضج فى بابه ، وأنه يحمل جوزا بشكل التفاح يتفتح عن شعر القطن ، وأنه يقلع بمصر فى كل عام بخلاف العراق فإنه يترك حتى يصير شجرا .

وروى الشريف محمد بن محمد الإدريسى الصقلى فى كتابه « نزهة المشتاق فى اختراق الآفاق » وقد ألفه لصاحب صقلية أن بمدينة البهنسا من صعيد مصر طرزا تنسج به أصناف الستور المعروفة بالبهنسية والمقاطع السلطانية والمضارب الكبار والثياب المتخيرة ، وبها طرز كبيرة للعامة يقيم لها التجار الستور الثمنية طول السنين منها ثلاثون ذراعا وأزيد مما قيمة الزوج منها مائتا مثقال وأزيد من ذلك وأقل . ولا يصنع بها شىء من الستور والأكسية وسائر الثياب المتخذة من الصوف والقطن إلا وفيها اسم الطرز المتخذة لها . وهذه الستور والفرش والأكسية مشهورة فى جميع الارض .

وأول من تكلم عن القطن بمصر من الوجهة النباتية هو العلامة الإيطالى بروسبر البينى ، وكان أستاذ علم النبات بجامعة بادوا بايطاليا ، وزار مصر فى منتصف القرن السابع عشر ، وكتب عن نباتاتها وحيواناتها فوصف القطن المصرى وصوره وذكر أن اسمه المتداول هو « قطن مسيجر » وهو القطن الشجرى السالف الذكر .

ثم جاء بعده فورسكال النباتى الألمانى ودون ماشاهده بمصر فى كتابه « الفلورا المصرية العربية » المطبوع سنة ١٧٧٥ فقال إن بمصر نوعين من القطن هما « جوسبيوم رو برم » و « جوسبتوم أريوريوم » وهو القطن الشجرى » .

وتكلم فيما بعد علماء حملة نابوليون عن الأقطان المصرية فذكروا القطن الشجرى وهو بعينه الذى شاهده فى مصر من قبل بلنيوس الرومانى وبروسبر البينى الطليانى وفورسكال الألمانى فى عصور متتابعة ، ثم ذكروا أن القطن العشبى « جوسبيوم هرباسيوم » ينمو بمصر وكذلك قطن اسمه العلمى جوسبيوم فروتسنز ، وكل هذه الأنواع كانت تسمى جملة بالقطن البلدى .

وكانت مصر ترسل أقطانها إلى مرسيليا فى عهد الحروب الصليبية كما يقول مارشان ، وكان بالاسكندرية ودمياط وتنيس ودانق « وهذه واقعة بين الفرما وتنيس » مصانع تخرج أجمل منسوجات القطن وتصدرها إلى كافة البلاد الشرقية .

ويقول ماسون إن المنسوجات المصرية كانت من أهم صادرات مصر إلى فرنسا فى القرنين السابع عشر والثامن عشر فأبحرت إلى فرنسا خمس سفن تحمل كثيرا من اللبن والجلد والقطن والأقمشة المختلفة والسكر والمنسوجات الكتانية، وأن مصر صدرت إلى فرنسا سنة ١٧١٤ حمولة إحدى وأربعين سفينة من البضائع من بينها القطن، وأن ثمن قنطار القطن المنسوج بالاسكندرية بلغ خمسين جنيها فى سنة ١٦٥٠ وسبعة وستين جنيها فى سنة ١٧٠٦

وقد استمرت مصر تصدر البضائع القطنية بلا انقطاع طوال القرن الثامن عشر حتى الحملة الفرنسية ؛ ومنها غزل القطن والبفتة البيضاء والمصبوغة باللون الأزرق وغير ذلك .

ويخبرنا جليدون أن أهل مصر كانوا يستعملون القطن البلدى فى صناعة الأقمشة الرخيصة، وفى حشو المراتب والألحفة والمخادع ،وما إلى ذلك . أما الأقمشة الجيدة فكانوا يصنعونها من قطن مغزول يجلبونه من الشام والهند وأوربا، ومن قطن حبشى أبيض جيد يأتى به جلابو الرقيق من السودان .

وكان القطن البلدى أصنافا متعددة منها الشرقاوى والأزميرلى الذى جاءت بذرته فى الأصل من أزمير ، كما أن منها صنفا استحضرت بذرته من عكا بفلسطين وزرعت فى الوجه البحرى شرق فرع دمياط فتحسنت تيلته .

وكانت أصناف القطن البلدي كريهة الرائحة قصيرة التيلة تشبه قطن « سورات » الذى يباع فى أسواق أوربا ، وهى أحط من أقطان البنغال .

وكان محصول القطن البلدى بالديار المصرية قبيل عهد محمد على نحو ثلاثين ألف قنطار فى العام ، زنة القنطار ثلاث وأربعون أقة وثلثا أقة ، ثم ازداد إلى خمسين ألف قنطار فى سنة ١٨٢٣ ، ثم تناقص حتى اندثر حوالى سنة ١٨٣٢ لحلول قطن جوميل مكانه .

ويحدثنا جيرار أن القطن فى عهد الحملة الفرنسية كان يزرع فى كافة أنحاء القطر ، ولكن معظمه كان فى مديرية قنا ، وكان يزرع أيضاً فى مديرية الفيوم فى البساتين المجاذية لبحر يوسف .

وقال إنه كان يزرع فى ميعادين : الأول من ابريل إلى مايو ، والثانى من

يونيه إلى يوليه ، وكانوا يجمعون الأول فى أغسطس والثانى فى مارس ، لأن الشتاء يؤخر نضج جوزه . وكانوا يحرثون له الأرض مرة أو مرتين ، ثم يقسمونها أحواضاً عددها مائتان فى الفدان ، ثم يزرعون بذور القطن بحواف الحوض على مسافات قدرها متر ، ويزرعون داخل الأحواض الباميا أو الملوخية . وكانوا يروونه كل خمسة أيام إلى سبعة وعشرين يوما ، وكان محصول الفدان ثلثمائة رطل .

ثم قال إن القطن يزرع فى الوجه البحرى كنبات حولى حيث يبدأون جمعه فى سبتمبر ، وكان محصول الفدان فى سمنود قنطاراً ونصف قنطار إلى قنطارين ، وكانت زنة القنطار مائة وعشرين رطلا . وكانت الدورة الزراعية لخمسة وعشرين فدانا مثلا ثلاثة عشر فدانا ذرة شامية وستة فدادين قطنا ومثلها سمسما .

وكانوا يحلجونه أى يفصلون شعره عن بذره بأصابع اليد فتغزله النسوة ، ثم يرسل بعد ذلك إلى النساجين ، وكانت بالديار المصرية مصانع للقطن فى إسنا وقوص وقنا وبنى سويف والفيوم والمحلة الكبرى ، وكان بمصانعها ألفان من النساجين . وكانت مصانع رشيد ودمياط تصنع أقمشة من قطن مخلوط بحرير ، وتنسج « الفوال » وكان هذا القماش يصنع أيضاً فى مصانع البرلس والاسكندرية .

(ب) القطن فى عهد محمد على

فجر النهضة القطنية

لما ولى العزيز محمد على أمر مصر شيد صرح النهضة المصرية الحديثة ولم يترك بابا لمضاعفة ثروتها إلا طرقه ، فتوسع أيما توسع فى زراعة قطن جوميل .

وقد اختلف الرواة فى أصل هذا القطن ، فمن قائل إن أصله من بلاد الهند ، جاء ببذرته أحد الدراويش وأهداها إلى محوبك الأورفلى فقدمها هذا إلى مولاه محمد على فسلمها العزيز إلى جوميل ، وكان فرنسيا من أهل سويسرا ، ليختبرها ويعمل ، إن نجحت ، على استكثارها .

ومن قائل إن جوميل زار فى سنة ١٨٢٠ محوبك السالف الذكر — الذى كان حاكما لإقليمى دنقلة وسنار — فى منزله بالقاهرة فرأى فى حديقة هذا المنزل مجموعة

من النباتات السودانية أحضرها هذا الحاكم من السودان عند رجوعه إلى مصر بعد أن أحيل إلى المعاش ، وكان من بينها شجرة قطن عجيبة لم ير جوميل مثيلتها فى مصر ، فاحتال الفرنسى وأخذ بعضاً من بذورها فى غفلة من صاحبها وقدمها إلى محمد على قائلا : إنها لقطن جديد كشفة ، وأنها لو زرعت لملأت خزائنه بالذهب . ثم استأذنه فى استكشارها على أن يكافئه بعشرين ألف دولار إن نجح ، فلما وافق الباشا زرع جوميل هذا القطن بمساعدة رجل رومى فى جهة المطرية من ضواحى القاهرة فى بضعة أفدنة أخرجت له ثلاث بالات صدرها الباشا إلى تريستا « أو إلى مرسيليا » فحازت إعجاب الغزالين ، فلما رأى الباشا ذلك أمره أن يكثر من زراعة هذا القطن فى أراضيه بالوجه البحرى .

وقد نفر الفلاحون فى مبدأ الأمر من زراعة هذا القطن لجهلهم له ، ولتعودهم زراعة أصناف القطن البلدى دهورا طويلة . ولكنهم ما لبثوا أن عرفوا قيمته فانتشرت زراعته حتى بلغت غلته ثلاثين ألف قنطار فى سنة ١٨٢٣ .

ومات جوميل سنة ١٨٢٤ وهو لا يعرف أنه كشف لمصر كنزاً كان له أكبر الأثر فى نهضتها الحديثة .

ويقول المسيو فيليكس منجان : إن قطن جوميل كان يزرع فى مختلف أراضى الديار المصرية ، ولكنه كان يجود فى الأرض التى تحتفظ برطوبتها . وطريقة زراعته أنهم كانوا ينقعون البذرة فى الماء مدة أربع وعشرين ساعة ثم يطمرون عدداً منها يتراوح بين بذرتين وأربع بذور فى نقر عمقها بين ثمانية سنتيمترات وعشرة ، ويبعد بعضها عن بعض قدر ياردة ، وكانوا يروونه كل اثنى عشر يوما فى الربيع ، وثمانية فى الصيف ، وخمسة عشر فى الشتاء . وكانت مدة مكثه فى الأرض ثلاثة أعوام ، وكانوا يجمعونه فى العام ثلاث جمعات : الأولى فى يونيه ، والثانية فى سبتمبر ، والأخيرة فى نوفمبر ، وقد تمتد إلى ديسمبر أو يناير إذا اشتد البرد وتأخر الجوز عن التفتح ، والجمعة الأخيرة هي أحسن الجمعات ، لأن القطن يكون فيها أقل تعرضاً لحرارة الشمس المحرقة وللجو الرطب فى موسم الفيضان .

وكانوا يلقطون شعر القطن فى هذه الأيام بأصابع اليد — يقوم بذلك الأطفال والنساء — وكانوا يحلجون جزءاً منه بآلة بسيطة التركيب تدار باليد تسمى الدولاب ، وكانوا ينظفونه من الأتربة والشوائب والعقد بأن يندفوه أى

يضربوه بالكرباج ، وهو قوس المنجد المعروف من قديم الزمان فى بلاد الهند والصين والعرب ومصر ، وقد انتقل إلى أمريكا مع المستكشفين الأسبان وهؤلاء أخذوه من غير شك عن عرب الأندلس .

وقد عرضت على العزيز محمد على نماذج عدة لأحدث آلات الحلج فكان يرفضها لتعلقه بالطريقة العتيقة لأسباب وطنية واقتصادية هى إيجاد عمل للأيدى العاملة المصرية ، ولأنه رأى أن القطن المحلوج بهذه الآلات يباع فى أسواق ليفربول بثمن ينقص عن الملتقط باليد أربعة مليمات فى الرطل الواحد . وقد استمرت مصر تحلج أقطانها بالأصابع والدواليب البلدية إلى عهد سعيد باشا فأدخل سنة ١٨٥٣ آلة الحلج الأمريكية المسماة « مكارثى » فكان مقدار ماتحلجه قنطارين صافيين فى ست ساعات ، ولم يحدث منها للقطن المحلوج أى ضرر .

وكان الفلاح فى عهد محمد على يعبىء قطنه بطريقة الكبس بالأرجل - كما هو الحال الآن فى بعض جهات السودان - فى غرارات « بالات » طولها ست أقدام وقطرها أربع أقدام أو أربع ونصف ، ولكنهم كانوا يكبسونه أحياناً بمكابس بسيطة التركيب فى بالات سمتها أربع أقدام فى الطول وثلاث فى العرض ، وسمكها قدمان . وكان وزن البالة فى كلتا الحالتين مائتين وتسعة عشر رطلا . وقد أنشأ بعض تجار الأقطان بالاسكندرية مكابس قوية تضغط أحجاما هائلة من القطن فى بالات صغيرة .

وكان محصول القطن محتكراً للحكومة فى عهد العزيز ، فكان يورد مايزرع منه فى أراض غير أرض الباشا ، إلى مخازن الحكومة بسعر عشرة ريالات للقنطار الذى زنته ستاً وثلاثين أقة .

وكان قنطار القطن فى العهد السابق ثلاثاً وأربعين أقة وثلثى أقة أى مائة وثلاثة وعشرين رطلا ، ولكنه عدل بأمر محمد على من أول يناير سنة ١٨٣٦ إلى ست وثلاثين أقة أى مائة رطل مصرى (٩٩ رطلا إنجليزيا) .

وكان قطن جوميل يفوق أقطان الهند فى الجودة ، لذلك استأذنت حكومة الهند الباشا فى إدخال بذرته لتزرع فى بلادها فأذن .

وقد شجع قطن جوميل الباشا على إدخال أصناف أجنبية فأدخل « قطر

نانكين » سنة ١٨٢٢ من جزيرة مالطه ، وزرعه لأول مرة بمصر فكان محصوله الأول مائتى بالة ، والثانى مائتين وخمسين بالة ، وكان ثمن القنطار منه خمسة عشر ريالا ، ولكنهم سرعان ماأقلعوا عن زراعته لأنه كان يتلف لسبب يجهلونه .

ثم أدخل الباشا قطن « ألسى أيلاند » وزرعه بمصر سنة ١٨٢٦ - ١٨٢٧ فكان محصوله يفوق قطن جوميل فى الجودة وبيع فى أسواق ليفربول باسم « قطن مصرى درجة أولى » بسعر يزيد ريالين إلى أربعة ريالات على قطن جوميل . ولم تتعد زراعة هذا الصنف مناطق خاصة ، لذلك لم يزد محصوله على ٧٥٠٠ بالة إلا فى سنة ١٨٢٨ ، فقد بلغ ١٥٠٢١ بالة ، وكانوا يغيرون بذرته من آن إلى آخر لأنه لم يحتفظ بصفاته الجيدة فى جو مصر أمداً طويلا . وقد بطلت زراعته سنة ١٨٣٨ واستنفدت بذرته ، ولكنها أدخلت فيما بعد بمقدار بسيط .

ولم يزد مقدار ما صدرته الديار المصرية إلى أوربا من بالات القطن « التى تزن البالة منها ٢١٩ رطلا » من سنة ١٨٤١ على مائة وثلاثة وثلاثين ألف قنطار من قطن جوميل وخمسة عشر ألفاً من قطن السى إيلاند . وكان متوسط ما تستهلكه مصانع الباشا فى جميع أنحاء القطر ، نحو ثلاثين ألف قنطار فى العام من سنة ١٨٢٩ إلى سنة ١٨٣٨ .

وكانت الحكومة تحتكر أغلب الحاصلات فتعمر بها مخازنها ، ويخبرنا المسيو كولان أن مقدار ما كان فى هذه المخازن من الغلال والبقول الجافة كالشعير والذرة الشامية والفول والعدس ثلاثة ملايين إردب ، ومن الأرز الدمياطى ثمانون ألف إردب ، ومن الأرز الرشيدى ستون ألف إردب ، ومن بذر الكتان ثمانون ألف إردب ، ومن ألياف الكتان خمسون ألف قنطار ، ومن الدخان مائة ألف قنطار ، ومن السكر اثنان وثلاثون ألف قنطار ، ومن السكر كم ثلاثة آلاف وخمسمائة قنطار ، ومن النيلة مائة وثمانية وسبعون ألف أقة ، ومن الأفيون خمسة عشر ألف أقة ، ومن قطع الأقمشة الهندية عشرون ألفاً ، ومن المناديل اثنى عشر ألفاً ، ومن مقاطع البفتة مليونان ، ومن مقاطع التيل ثلاثة ملايين ، ومن قطع القماش المقصب خمسة عشر ألفاً ، ومن أصناف الجلود المدبوغة من جلود الثيران والغنم والماعز مائة ألف ، ومن ملح البارود ثمانية عشر ألف قنطار .

وكانت صناعة غزل القطن ونسجه عامة الانتشار ، ولكنها كانت عتيقة فعمل

محمد علي باشا على بث روح التجديد فيها ، فأنشأ سنة ١٨١٦ أول مصنع على الطراز الأوربى فى جهة الخرنفش بالقاهرة ، وكان به ثلثمائة عامل يصنعون البفتة والكمبريت والباتيسته والقماش الموصلى « الموسلين » وكان ما يصنع بهذا المصنع يرسل إلى مصانع أخرى على شاطىء النيل فى بولاق وشبرا ليبيض ويطبع بالنقوش المختلفة . وكان أهل مصر يسمون بولاق « مالطه » لكثرة ما كان بمصانع القطن فيها من العمال المالطيين .

واستمر العزيز فى إنشاء مصانع القطن حتى سنة ١٨٣٠ فى جهات عدة بالديار المصرية : كقليوب وشبين الكوم والمحلة الكبرى وميت غمر والمنصورة ودمياط ودمنهور وفوه ورشيد وطنطا وبنى سويف والمنيا وفرشوط وأسيوط وجرجا وقنا وقفط وإسنا وغيرها ، فكلفه بناؤها وتزويدها بالآلات مائتى ألف كيس أى خمسة ملايين ريال ، وكان بها ثلاثون ألف عامل ، وكانت تدار آلاتها بالماشية فبلغ عددها اثنى عشر ألف رأس .

وهكذا نجح قطن جوميل فى عهد محمد على حتى أن مصر صدرت منه من سنة ١٨٣٠ إلى سنة ١٨٤٣ أى فى ثلاثة عشر عاماً نحو مليونين وثلاثة أرباع المليون من القناطير .

ولما كان القطن طوال هذه السنين محتكراً للحكومة ، كما قدمنا ، فإن ما صدر منه لم يتعد هذا القدر ، غير أن سعيد باشا حين تبوأ عرش مصر أبطل هذا الاحتكار فى برنامج إصلاحاته ، فارتفع مقدار ما صدر من القطن من سنة ١٨٥٠ إلى سنة ١٨٦١ إلى نحو ستمائة ألف قنطار ، أى أنه تضاعف فى ست سنوات ، وارتفع ثمنه إلى مليون من الجنيهات ، ولم ينقص عن ثلاثة أرباع المليون من الجنيهات .

لذلك يعد حكم سعيد مطلع عهد النهضة القطنية بمصر التى ابتدأت بحكم اسماعيل .

(ج) النهضة القطنية الأولى
فى عهد إسماعيل

جلس إسماعيل على عرش الفراعنة سنة ١٨٦٣ وكان قد رأى مبلغ ما وصلت إليه أوربا من التقدم فى شتى الفنون ، فكان يؤلمه ألا تكون بلاده فى مصاف

هذه الأمم ، وقد جاهر بذلك لأحد زواره الفرنسيين واسمه أدمون ، فقال إنه يتألم لأن القمح المصرى يباع بثمن يقل الثلث عن ثمن القمح الأوربى ، وأنه يود إيجاد طريقة لمقاومة الآفات التى تفتك بأقطان مصر ، وقال إن نسبة السكر فى القصب المصرى قليلة ، على الرغم من جودة نموه ، وودد أن يوفق لمن يهديه إلى طرق فعالة لمعالجة ما يلتاب الحاصلات والحيوانات الداجنة المصرية من التدهور ، ثم تساءل عما إذا كانت فى الممالك الأوربية وغيرها حاصلات يمكن زراعتها فى مصر لفائدة أهلها ورفاهيتهم .

بهذه الروح الطيبة والتفكير الوطنى السليم تربع إسماعيل على أريكة ملكه ، فعمل على الاتساع فى زراعة القطن ، وعلى إدخال أصناف جديدة منه ، جاء بها من جميع البلاد الأجنبية ، وساعده على ذلك ما ترتب على الحرب الأمريكية الداخلية « ١٨٦١ - ١٨٦٥ » من نقص محصول القطن وقلته فى أمريكا ، وما نجم عن ذلك من الأزمة الشديدة فى صناعته بأمريكا وأوربا ، فكانت فرصة ذهبية قبض عليها إسماعيل بكلتا يديه واستغلها لفائدة بلاده ، فازداد مقدار ما صدر من القطن فيها من نحو ستمائة ألف قنطار فى سنة ١٨٦١ إلى مليونين ونصف من القناطير فى سنة ١٨٦٥ ، وأصبح محصوله من أهم صادرات مصر ، فقد بلغت قيمة ما صدرته مصر سنة ١٨٦٠ نحو سبعة عشر مليوناً من الجنيهات منها نحو خمسة عشر مليوناً ونصف المليون من الجنيهات للقطن .

وكانت لهذا التوسع الفجائى فى زراعة القطن نتائج بعيدة المدى ، فقد أصيب القطر المصرى عن بكرة أبيه « بحمى القطن » فاختل بسببها التوازن الزراعى ، ولم يكن للناس حديث غير القطن ، فبلغت غلته فى مديرية الشرقية وحدها سنة ١٨٦٤ نحو مائة وستين ألف قنطار ، ولا عجب فى ذلك ، فقد بيع قنطار القطن فى تلك الأيام باثنين وخمسين ريالا ، وكان من أثر هذا أن أقلع المصريون عن زراعة الغلال وحاصلات العلف فهبط مقدار ما صدرته مصر من القمح من مليون الأرادب سنة ١٨٦٢ إلى نحو ثمانمائة ألف إردب فى سنة ١٨٦٤ وفى سنة ١٨٦٥ لم تصدر من القمح شيئا قط .

وقد تعرضت البلاد من جراء ذلك للقحط فسارعت الحكومة إلى استيراد الغلال ، بجميع أنواعها ، والدقيق من الخارج لإطعام الإنسان والحيوان ، فكانت

الغلال ترد تباعا من مرسيليا وتريستا ، ولكن ذلك لم يقف ما استولى من الذعر على أسواق الغلال إذا استمرت الأسعار فيها فى صعود .

ونشأ عن قلة حاصلات العلف انتشار الطاعون فى الماشية وازداد شدة بسبب إجهادها فى تحضير الأرض لزراعة القطن فى مساحات كبيرة مع عدم العناية باطعامها ، فنفق منها — بحسب تقدير الحكومة — ستمائة ألف رأس ، فبادر الخديوى إلى سد هذا النقص الذريع فى ماشية القطر باستيراد عدد كبير من الخيل من بلاد الشام وأوربا ، ولكن تبين عند وصولها إلى مصر أنها هزيلة ضعيفة غير صالحة للعمل ، وأن الكثير منها مات فى الطريق ، واستورد إسماعيل كذلك عدداً كبيراً من الجاموس من جنوب الروسيا ، فنفق كثير منها فى الطريق وظهر فيما دخل منها مصر مرض لم يكن معروفا فى مواشيها من قبل ، وهو مرض Steppe Dise ase ونشأ عن قلة الماشية نقص عظيم فى اللحوم الصالحة للتغذية وقلة شديدة فى اللبن والسمن ، فلجأت الحكومة إلى استيراد الزبدة من تريستا ، وكانت خليطا من الشحم والدهن وزبدة التيرول .

ولما كان اعتماد الفلاح فى إدارة السواقى لرى القطن على الماشية ، فقد أصبحت زراعة القطن مهددة بالعطش بسبب ما نفق منها بالطاعون ، لذلك أدخلت آلات الرى البخارية فى سنة ١٨٦٢ مستوردة من انجلترا وغيرها من الممالك الأوربية لتقوم بعمل الماشية فى ري الأرض .

وقد اضطر الفلاح بسبب قلة العلف إلى التبكير فى زراعة البرسيم والتأخر فى تجفيفه للربة حتى يزيد بذلك عدد الحشات فزرعه فى أغسطس واستمر فى ريه فى مايو ويونيه ، وترتب على هذا وجود بيئة صالحة لدودة ورق القطن فظهرت لأول مرة وفتكت بالقطن فتكا ذريعاً ، كما أنه دخلت مع ما أدخل فى مصر من أصناف القطن الأجنبية آفات لم يكن للبلاد عهد بها من قبل ، فظهرت دودة اللوز العادية فى سنة ١٨٦٥ وفتكت بالمحصول أشد فتك .

وما انتهت الحرب الأمريكية حتى أصبحت مصر من أهم ممالك العالم في زراعة القطن ، وصار لزاما عليها أن تحتفظ بمكانتها الممتازة بالاستمرار فى الاتساع فى زراعته وفي تحسين أصنافه ولا يكون ذلك إلا بالاتساع فى الرى الدائم

وتحسين طرقه وباخراج أنواع جديدة من القطن بالطرق العلمية لتحل مكان مايتدهور منها .

أصناف القطن المصرى

كان متوسط محصول قطن جوميل فى السنوات الأولى لزراعته ثمانية كنتالات للفدان ، لكنه لم يحتفظ بصفاته الجيدة مدة طويلة ، إذ ظهرت فيه آثار التدهور واضحة فى الشطر الثانى من حكم إسماعيل ، فبلغت أعلا غلة للفدان منه فى سنة ١٨٦٢ خمسة قناطير ، بينما كان متوسطها ثلاثة قناطير . وفى حالات نادرة بلغت الغلة سبعة أو ثمانية قناطير ، ولم يقتصر تدهور هذا الصنف على مقدار غلته بل تعدى إلى جودته ، كما قررت ذلك المصانع الأوربية التى كانت تستورده ، ففى سنة ١٨٧٤ قدم أصحاب مصانع بولطن شكوى إلى اللورد « دربى » ليرفعها إلى خديو مصر ضمنوها مبلغ ماوصل إليه القطن المصرى إذ ذاك من تدهور وأعلنوا أنه إذا لم تتخذ الوسائل الفعالة لتحسينه فإنهم يمتنعون عن شرائه . وقد اشتركت كافة مصانع النسج الإنجليزية فى هذه الشكوى ، فاهتمت الحكومة المصرية والزراع حينئذ بإنتاج أصناف محسنة من القطن ، كما اهتموا بتحسين طرق زراعته ضماناً لزيادة غلته ، وأدخل الخديو إسماعيل كذلك أصنافا جديدة من القطن وجربها واختبرها فى مزرعة التجارب التى كانت جزءاً من حديقته النباتية البديعة فى الجزيرة بالقاهرة .

ويقول دلشفيليرى : إن الخديو اسماعيل عرض فى المعرض الدولى الذى أقيم فى سنة ١٨٧٥ بمدينة كولونيا بألمانيا نماذج من الأقطان المصرية المسماة « محو جوميل » و « الأشمونى » و « القليني » وعدداً من الأصناف التى أدخلها من الخارج وزرعها فى مصر ، مثل قطن البرازيل ، وقطن الصين ، وقطن منترای ، وقطن تكساس وقطن كستلمار الأبيض ، و قطن ديفان « المقدس » وقطن جورجيا الطويل التيلة ، وقطن كارولينا الشمالية .

وقد أدخل اسماعيل المرة الثانية من كارولينا الجنوبية قطن سى أيلند الذى انتجت زراعته قطن سى أيلند المصرى ، وهو الذى أنتج قطن البامیا والقطن الزفيرى والقطن الحريرى ، وقطن بسيخا ، وقطن ما سكيز كما نتجت من اختلاط قطن سى

أيلند بقطن جوميل أصناف : الأشموني ، والحامولي ، والميت عفيفي ، والأبيض ، والعباسي ، ويوانوفتش ، والأصيلي ، والنوباري ، والسكلاريدس .

أما قطن الباميا ، فقد عثر عليه فلاح مصري في سنة ١٨٧٣ ناميا في حقل بركة السبع قرب شبين الكوم .

وافترض دلشفيري أن قطن الباميا نتج عن التهجين الطبيعي بين نباتي الباميا والقطن ، ولكن اتضح أن ذلك غير صحيح ، فقد ذكر السير هوكر أن قطن الباميا هو طفرة بذرية لأحد الأقطان المصرية من طراز سي أيلند ، وغلة قطن الباميا مرتفعة بسبب طبيعة نموه الخاصة ، فإنها بلغت بين سبعة وثمانية قناطير للفدان ، وكان يزرع في جهات طلخا وشربين بمديرية الغربية . والسنبلاوين وفارسكور بالدقهلية ، حيث توافقه طبيعة الجو والتربة هناك .

وظهر صنف القطن الفلبيني في قلين بالغربية ، وهو شتق من قطن سي أيلند . والفلبيني صنف متأخر ، شديد الحساسية للعطش ولتقلبات الحرارة .

أما القطن الزفيري فقد عثر عليه ناجر يوناني في مديرية المنوفية . ولكن لم تلبث زراعته أن اختفت لشدة حساسيته كذلك للتقلبات الجوية .

والقطن الحريري مشتق من قطن سي أيلند ، وقد بطلت زراعته أيضاً لقلة غلته .

أما الصنفان « بسيخا » و « ماسكنز » فقد سميا بهذه التسمية نسبة إلى من عثرا عليهما ، وقد اختفيا أيضاً من الزراعة لانحطاط جودة الأول ، وقلة غلة الثاني وتأخر نضجه .

وأما الأشموني القديم فمحتمل أن يكون هو القطن « المصري الأسمر » الأصلي وسمي الأشموني نسبة إلى بلدة أشمون بالمنوفية التي ظهر فيها لأول مرة . ويحتمل أن يكون هذا الصنف قد نتج من التهجين الطبيعي بين قطني جوميل وسي إيلند الذي أدخل إلى مصر ، ويقال إن هذا الصنف يتأثر بتقلبات الحرارة وبالندى . وكان صافي حلجه محدوداً إذا قورن بالأصناف الأخرى ، ولكن بذوره غنية بالزيت ، وكان لا يزرع إلا في الوجه القبلي ، وما زال الأشموني يزرع إلى الآن في كل أنحاء القطر .

كما أنه لايزال يحمل بعض اللون السمنى الواضح الذى كان لصنف قطن جوميل .

أما القطن الحامولى فقد نتج من الأشمونى فى بلدة الحامول بالمنوفية ، وكان يسمى أيضاً « السكرى » لأن تيلته كانت تشبه السكر النقى ، أعنى أنها كانت بيضاء تشوبها صفرة ، وكانت تصافى حلجه جيدة ، ولكن تيلته كانت قصيرة فأدى هذا إلى اختفائه من السوق .

وظهر القطن الميت عفيفى حوالى سنة ١٨٨٢ فى قرية ميت عفيف بالمنوفية حيث عثر عليه تاجر يونانى لفت نظره ما تحمله بذوره فى قمتها من زغب أزرق مخضر . وكان هذا الصنف أكثر حساسية من غيره من أصناف القطن لتقلبات الجو ، ولون شعره سمنى كالأشمونى ، ولكن غلته كانت ضعف غلة الأشمونى وتصافى حلجه مرتفعة ، كما أن تيلته كانت قوية طويلة منتظمة ناعمة الملمس . وكان أكثر القطن المصرى فى سنة ١٩٠٠ من هذا الصنف . وكان النساجون يسمونه « الأسمر المصرى » ولكنه أخذ يتلاشى منذ سنة ١٩١٠ مخلياً السبيل لصنف السكلاريدس ، أما صنف القطن المسمى « أبيض » فناتج من قطن « جوميل » وكان يصدر إلى شمال فرنسا والألزاس وسويسرا .

وصنف القطن المسمى « عباسى » مستنبط حوالى ١٨٩٣ من القطن الميت عفيفى وهو أنصع الأقطان المصرية كلها بياضاً ، وكان يزود السوق سنة ١٨٠٨ بأغلب القطن الأبيض اللون ، وكانت تصافى حلجه أعلى بشكل واضح عن الأشمونى ، ولكنها أقل من الميت عفيفى ، ويقال إن هذا القطن ناتج من تزاوج القطنين الميت عفيفى بالزفيرى ، وما لبث هذا القطن أن تدهور واختفى حوالى سنة ١٩١٤ .

وفى سنة ١٨٩٤ ظهر القطن المسمى اليوانوفتش منتجاً من الميت عفيفى . وكانت تيلته تفوق العفيفى فى خفتها وطولها ومتانتها وبياضها . وفى سنة ١٨٩٨ كان ثمنه ضعف ثمن الميت عفيفى ، وقد حل قطن السكلاريدس فيما بعد محله .

أما القطن الأصيلى — وكان يسمى أيضاً أصيلى عفيفى — فقد ظهر فى سنة ١٩١٠ كصنف تجارى تصافى حلجه مرتفعة جداً .

وزرع القطن النوبارى فى سنة ١٩٠٥ ، وهو منتخب من الميت عفيفى ، ولكنه يفوقه فى طول تيلته ومتانتها ، وكانت أهم مناطق زراعته مديريتا القليوبية والمنوفية ، ثم ما لبث أن أخلى الطريق لصنف السكلاريدس .

وأما قطن السكلاريدس أو الساكل كما يسمى للاختصار، فقد زرع لأول مرة فى سنة ١٩٠٧ وهو يشبه قطن يوانوفتش رغم أنه يفوقه. وقد انتشرت زراعته بسرعة فحل محل الصنفين اليوانوفتش والعفيفى.

وجميع أصناف القطن الآنفة الذكر ظهرت مصادفة نتيجة للانتخاب الطبيعى فلم يكن استنباطها بأية وسيلة علمية، وذلك رغم أن بعض الأفراد والهيئات والشركات بذلت جهوداً مشكورة لتحسين زراعة القطن وإدخال أصناف جديدة محسنة نخص بالذكر منها بيت، بلانتا، بالزقازيق الذى كانت له محطة تجارب نباتية هناك يجرى عليها تجاربه فى القطن.

ولم تبدأ دراسات زراعة القطن واستنباط أصنافه ومراقبة تقاويه مراقبة دقيقة إلا منذ سنة ١٩٠٥ ورغم ذلك لم تظهر نتائج هذه الدراسات إلا من عهد قريب حين أنشىء مجلس مباحث القطن.

(د) النهضة القطنية الثانية، وهى الحالية

مجلس مباحث القطن:

أنشىء هذا المجلس فى سنة ١٩٢٠ وقت أن كانت غلة الفدان من القطن على أقلها بسبب عوامل مختلفة، منها تدهور التربة المصرية بسبب ارتفاع مستوى الماء الأرضى، ورداءة الصرف، وانتشار آفات القطن وخاصة دودة اللوز، وشيوع صنف السكلاريدس القليل الغلة رغم جودة تيلته وطولها.

لهذا كله أنشأته الوزارة للتغلب على هذه العوامل، وقد نجح فى مهمته أعظم نجاح، يدل على ذلك ارتفاع غلة الفدان ارتفاعا مطرداً بسبب استبدال الأصناف القليلة الغلة تدريجياً بأخرى مرتفعتها، وتحسين وسائل الزراعة وطرقها وخاصة الزراعة على مسافات أضيق، واستعمال الأسمدة الكيميائية، والنجاح فى الحد من نشاط الآفات حشرية كانت أم فطرية، واستنباط الأصناف المنيعة ضد مرض الذبول والتى تهرب من إصابة دودة اللوز. تضاف إلى ذلك المحافظة المستمرة على نقاوة الأصناف وإكثارها وتوزيعها على المزارعين نقية طبقاً لنظام خاص.